بسم الله الرحمن الرحيم

وأما تقوية باعث الدين؛ فإنه يكون بأمور: إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصى وهو يرى ويسمع، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك ألبتة.

مشهد محبته سبحانه؛ فيترك معصيته محبةً له، فإن المحب لمن يحب مطيع، وأفضل الترك ترك المحبين، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين، فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد.

مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لئام الناس، فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلا إليه ومخالفته ومعاصيه وقبائحه صاعدةً إلى ربه، فمَلَكٌ ينزل بهذا ومَلَك يعرج بذاك فأقبِح بها من مقابلة.

مشهد الغضب والانتقام؛ فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء فضلًا عن هذا العبد الضعيف.

مشهد الفوات، وهو: ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلًا وشرعًا وعرفًا ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعًا وعقلًا وعرفًا، ويكفي هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذي أدنى مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافًا مضاعفة، فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذاتها وتبقى تبعتها، تذهب الشهوة وتبقى الشقوة، وقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» قال بعض الصحابة: "ينزع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظلة؛ فإن تاب رجع إليه". وقال بعض التابعين: "ينزع عنه الإيمان كما ينقص القميص فإن تاب لبسه". ولهذا روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي رواه البخاري: «الزناة في التنور عراة؛ لأنهم تعروا من لباس الإيمان وعاد تنور الشهوة الذي كان في قلوبهم تنورًا ظاهرًا يُحمى عليه في النار».

مشهد القهر والظفر؛ فإن قهر الشهوة الظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين وأحلى موقعًا وأتم فرحة، وأما عاقبته فأحمد عاقبة، وهو كعاقبة شرب الدواء النافع الذي أزال داء الجسد، وأعاده إلى صحته واعتداله.

مشهد العوض: وهو: ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله، ونهى نفسه عن هواها، وليوازنه بين العوض والمعوض، فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

مشهد المغافصة والمعالجة، وهو: أن يخاف أن يغافصه الأجل؛ فيأخذه الله على غرة؛ فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة، فيا لها من حسرة ما أمرها وما أصعبها، لكن لا يعرفها إلا من جربها. وفي بعض الكتب القديمة: "يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين ولا يتم له سرور يوم، الحذر الحذر".

مشهد البلاء والعافية؛ فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها.

والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم.

وقال بعض أهل العلم في الأثر المروي: "إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية"؛ فإن أهل البلاء المبتلون بمعاصي الله والإعراض والغفلة عنها، وهذا وإن كان أعظم البلاء فاللفظ يتناول أنواع المبتلين في أبدانهم وأديانهم، والله أعلم.

أن يُعَوَّد باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلًا قليلًا حتى يدرك لذة الظفر؛ فتقوى حينئذ همته، فإن من ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله، والاعتياد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها تلك الأعمال، ولذلك تجد قوى الحمالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد بخلاف البزاز والخياط ونحوهما، ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوي فيه باعث الشهوة، ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متي أراد.

كف الباطل عن حديث النفس، وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤويها ولا يساكنها، فإنها تصير منى، وهو رؤوس أموال المفاليس، ومتى سكنت الخواطر صارت أماني، ثم تقوى فتصير همومًا، ثم تقوى فتصير إرادات، ثم تقوى فتصير عزمًا يقترن به المراد، فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

صرف الفكر إلى عجائب آيات الله التي ندب عباده إلى التفكير فيها، وهي: آياته المتلوة وآياته المجلوة، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه محاضرة الشيطان ومحادثته ووسواسه، وما أعظم غبن من أمكنه أن لا يزال محاضرًا للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة، فرغب عن ذلك إلى محاضرة الشيطان من الإنس والجن، فلا غبن بعد هذا الغبن، والله المستعان.

التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها، فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أخس ما فيها وأقله نفعًا إلا ساقط الهمة دنيء المروءة ميت القلب،

فإن حسرته تشتد إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له، فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد يعذب به ويناله بسببه غاية الألم، بل إذا زاد ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبنًا.

أن يعلم العبد بأنه فيه جاذبين متضادين، ومحنته بين الجاذبين: جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أعلى عليين. وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين. فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة حتى ينتهي إلي حيث يليق به من المحل الأعلى، وكلما انقاد إلى الجانب الأسفل نزل درجة حتى ينتهي إلى موضعه من سجين، ومتى أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل، فلينظر أين روحه في هذا العالم، فإنها إذا فارقت البدن تكون في الرفيق الأعلى الذي كانت تجذبه إليه في الدنيا فهو أولى بها، فالمرء مع من أحب طبعًا وعقلًا وجزاءً، وكل مهتم بشيء فهو منجذب إليه وإلى أهله بالطبع، وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:84]؛ فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهمها وأعمالها إلى أعلى، والنفوس السافلة إلى أسفل.

ألا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كاف في حصول المقصود، بل لا بد أن يضيف إليه بذل الجهد في استعماله واستفراغ الوسع والطاقة فيه، وملاك ذلك الخروج من العوائد؛ فإنها أعداء الكمال والفلاح، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبدًا، ويستعين على الخروج من العوائد بالهرب من مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ سَمِعَ بالدَّجال فَلْيَنْأَ عَنْه،» فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه. وهاهنا لطيفة للشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق، وهي: أن يظهر له في مظان الشر بعض شيء من الخير، ويدعوه إلى تحصيله، فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة، والله أعلم.

المصدر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين
[صفحة 51 وما بعدها]. بتصرف.

تقوية باعث الدين

ابن قيم الجوزية
رحمه الله تعالى

miraath.net
ميراث الأنبياء Miraath.Net حقوق الطبع محفوظة